التعليم التونسي يعيش خارج زمنه الاجتماعي

هل يؤدي علم الاجتماع بصاحبه إلى اليقين المعرفي؟ أبدأ درسي في أبستميولوجيا العلوم الإنسانية عادة بهذا السؤال وأدفع طلبتي إلى الشك النقدي في يقينية النتائج التي يزعم بعض العلماء ثبوتيتها المطلقة، وبعيدًا عن طلبتي أعتقد أنني أكرر على نفسي شكوكي في يقينية ما سلمت به كمعرفة ثابتة عن الواقع، ويزيد شكي كل يوم عندما أتأمل أحوال بلدي وأحوال نخبه المفكرة والعاملة، يترسخ عندي شك أو يقين (حيث يستويان) بأنهم يتعمدون تدمير البلد كأنهم أطفال صغار ينتقمون من أب قاهر بتكسير لعبتهم التي أنفق فيها مالاً لبدًا.

إنني أحاول أن أفهم ما يجري وأعجز فاكتب بعاطفة كبيرة وبعلم قليل فبعض اليقين أن التوانسة لا يخضعون لقواعد علم الاجتماع ثابتة كانت أم متحركة.

خلط الأولويات اختصاص نخبوي

نقوم كل صباح على زيادات في أسعار المواد المعيشية ونعرف دون نظريات في علم الاجتماع أن كل زيادة تعني المزيد من تفقير الفقراء، ونسمع كل يوم حديث المثقفين عن الرحمة بالفقراء ثم ينتهي اليوم عندنا بمتابعة نقاش عميق جدًا في حق الذكر في التمتع بشرجه في الطريق العام، نعم النخبة الرحيمة بالفقراء تناقش قبل توفير الخبز للفقراء حق المثليين في الحب الحسي العلني المحمي بالقانون.

لا أدري كم يمكننا إحصاء من مثلي مضطر أو راغب، لكن هذه الأقلية تصبح أولوية ويجند البلد والرئيس والبرلمان والسوشيال ميديا لضمان حقهم قبل حق الفقراء في الخبز الرخيص، سيخرج عليّ الآن من يقول بأولويات الحريات الفردية ولا أجد الإجابة فأنا في أقلية رتبت أولياتها على أن البدء يكون من الخبز تدرجًا نحو رفاه الفردانية في الجسد.

تخلد لدي من الدرس الخلدوني أن صنائع الرفاه ومنها صناعة اللذة والطرب تكون في آخر الدولة وتفشيها علامة من علامات نهاية العصبية (الدولة) وإيذان بانهيارها، لكن عندما نجد من يفشيها في أول الدولة بل قبل اكتمال بنائها أشعر بأن الدرس الخلدوني غير مفيد هنا، أي أن الموضوع غير قابل للقراءة

بهذه الأداة.

المدرسة التونسية مغتربة والتعليم التونسي يعيش خارج زمنه الاجتماعي

لقد سقط موضوع الحريات الفردية من مطالب النخبة الغربية التي نقرأ لها ونقارن بها حتى العقود الأخيرة رغم أنهم تحرروا من زمن بعيد من سلطة العصبية الدينية، ولا تزال لديهم نخب تدافع عن الفرق النوعي (الجندري)، ونقرأ لهم الآن مشاغل كثيرة تريد إعادة تأليف التضامنات الاجتماعية القائمة على الأسرة ورابطة الدم لمواجهة فردانية ماحقة أودت بمجتمعاتهم إلى حالة من الفناء (خاصة لجهة انتهاء الإنجاب حيث يتحدثون عن اندثار العرق الأوروبي)، لماذا تنشغل نخبنا بمواضيع تجاوزها النقاش في العلوم الإنسانية وعلم إدارة المجتمعات؟ لماذا تختلط عندهم أوليات النقاش؟

محاولة يائسة للفهم

قبل التحليل سأتهم المدرسة، المدرسة التونسية مغتربة والتعليم التونسي يعيش خارج زمنه الاجتماعي، لكن متى بدأ ذلك؟ وهل الأمر خاص بمرحلة محددة؟ بعيدون نحن الآن عن مرحلة تجنيد المدرسة لتخريج كوادر الدولة وتحرير الإدارة من الخبير الأجنبي أما وقد اكتملت المهمة بنجاح نسبي فإنه كان على المدرسة أن تعيد أوليات عملها لبناء المجتمع منطلقة من تراثها الفكري والروحي لكنها اتجهت إلى القطيعة معه محاولة البناء على أسس مستجدة من خارجه، من هنا بدأ الاغتراب.

يعيش المتعلم في مدرستنا بفكرة أن لغته غير مجدية في السوق وأنه مدعو ليكون تقنيًا جيدًا بغاية الوصول إلى الرفاه بغير لغته الأم طبعًا، لذلك يصرف جهده التعليمي إلى الخبرة التقنية فينسى أن يفكر، فإذا بدأ العمل تحول إلى آلة إنتاج موقعه الاجتماعي ورفاهه الخاص فيصير جاهزًا لشحنه بكل ما يرفع من فائدته الشخصية بقطع النظر عن محيطه الاجتماعي، وأول الخسارات لغته أي قاعدة ثقافته العامة التي تجعله عضوًا في مجتمع خاص.

من السهل إلقاء العبء على الأجنبي أو على الحكومات الفاسدة ولكن اعتقد أنه يجب العودة إلى طبيعة تفكير النخبة الوسطى أو الشريحة الاجتماعية

يكسر روابطه القديمة التي فقدت جدواها في السوق ويتسلح بموقعه (الخبير) لرفع درجة كفاءته المؤدية إلى المزيد من الفائدة، يبدأ خلط الأوليات فيسقط الانتماء بصفته درعًا (هوية عامة) تصبح الحرية الفردية مقدمة على النماء الاجتماعي العام، ترتفع قابلية التخلي عن الجماعة الاجتماعية حينها نكتشف أن المدرسة لم تصنع هوية بل صنعت فردًا تهمه متعته الخاصة ولو سخر لها المجتمع برمته لخدمته وهو جوهر النقاشات التي تجري الآن في السياسة والفكر، ويكفي أن نتأمل سلوك الطبيب التونسي في سوق الصحة لنرى الأمثلة الصارخة عن صناعة الفرد لنفسه على حساب الجماعة التي يعالج أجسادها.

إنها ثمرة مدرسة بلا هوية مدرسة صناعة الفردانيات حيث يمكن تسريب قضايا المثلية الجنسية قبل تمكين عامة الناس من الماء الصالح للشراب؟ من نتهم بإفساد المدرسة؟ من السهل إلقاء العبء على الأجنبي أو على الحكومات الفاسدة، ولكن أعتقد أنه يجب العودة إلى طبيعة تفكير النخبة الوسطى أو الشريحة الاجتماعية التي ارتقت بالتعليم إلى مواقع التحكم في الإدارة وصناعة المواقع والفائدة ثم واصلت استعمال المدرسة لمزيد من الضلال المبين.

إعادة طرح المسألة بشكل مختلف

ماذا لو تكف المدرسة عن صناعة الخبراء الطموحين إلى فردانياتهم المطلقة؟ هل يمكن بناء نظام تعليمي جديد يستبعد ترقية مادية لصالح بناء هوية جماعية؟ هل تبدو الفكرة فاشية؟ سيمر هذا بالتحرر من اقتصاد السوق أو فك الارتباط بفكرة الترقي الاجتماعي المادي عودًا إلى ترقية الهوية الجماعية

بصفتها وعاءً تنمويًا غير مادي، سيحتاج الأمر مرة أخرى إلى إعادة تأليف مفردات التراث الثقافي الذي أوصل البلد (الأمة) إلى مرحلة ما قبل بدء التفكيك الجاري الآن، فهذه البلدة (كجزء من أمة) لم تولد مع المطر الأخير.

إن ما نقوم به الآن هو في الغالب اعتراض يائس على سياق إنتاج الفردانية بكل قضاياها المهمشة (من داخل الفردانية نفسها) ولكننا نجتنب العودة إلى السؤال الأساسي الذي تقوم عليه المدرسة، ماذا نعلم أولادنا؟

إن مهمة المثقف مسلمة سوسيولوجية علمناها ولكننا لم نتعلم(عن سوء نية هو بعض متعتنا الخاصة) أن قدرة التبرير الذاتي لصوصية منتجة

يسقط المثقف العضوي

نخوض الآن نقاشًا مستعادًا منذ خمسين سنة عن التأصيل والتحديث ونكرر نفس الحجج من الجانبين بينما يعيش الناس (الفقراء أو المفقرون عمدًا) خارج هذا النقاش ويتدبرون أمر حياتهم بعسر وضنك شديد، إنها قطيعة بين النخب والناس صنعتها المدرسة، فالخوض في أمور الحريات الفردية مريح لأنه بعض شغل المتعلمين، إذ لا جهد يبذل في البحث عن نقطة بداية جديدة أي نقد ذاتي للاغتراب النخبوي.

أول النقد دحض الفكرة الرسولية التي أسندها المثقف لنفسه وهو درس أول يتم ضخه في المدرسة لتؤسس عليه بقية المهمات الرسولية التي يجيز بها المثقف لنفسه جر البلد بعيدًا عن القضايا الحيوية ومنها إعادة بناء الهوية الجماعية الوعاء الشامل حيث تصنع الأوطان.

إن مهمة المثقف مسلمة سوسيولوجية علمناها ولكننا لم نتعلم (عن سوء نية هو بعض متعتنا الخاصة) أن قدرة التبرير الذاتي لصوصية منتجة ماذا لو كان أول دروسنا في الابتدائي أن منتج الغذاء (الفلاح) أهم مكانة من المثقف المستهلك لمنتج الفلاح؟ ماذا لو علمنا الأولاد أن العمل بالساعد أكثر جدوى من العمل بالفكر؟ ماذا لو علمناه أن تناقض المدينة/الريف هو تناقض مصطنع يحيل العمل الزراعي إلى عار شخصي، يهرب منه كل متعلم ليكون نخبة في المدينة يمارس التفوق على الفلاح ويخوض في أولوية متعة الشرج على حق الماء الصالح للشراب؟

إنها لبيداء روحية قفراء وموحشة أن نعيد الناس بعد قرن ونصف للتحرر من دروس الفلسفة الوضعية لأوجست كونت التي تمتع الزعيم بقراءتها في أيام أقامته الباريسية فيما سكان الصحارى والجبال الأميون يحملون السلاح ويبدأون معاركهم بالتكبير.

على جانبي النقاش الدائر أجدني غير مجد للفلاح العاجز عن تسويق البطاطا لأن طبقة الموردين المتخرجين من مدارس التجارة العليا أغرقوا السوق بالمستوردات وأجدني غير مفيد للخائضين في حرية الفرد في جسده قبل حقه في التمتع بالماء الصالح للشراب، متى نعيد تأسيس المدرسة؟ ستتأخر الإجابة كثيرًا حتى تصبح اللغة العربية أهم عند المتعلم من اللغة الفرنسية، في الطريق إلى ذلك سنخوض نقاشات طويلة في الحريات الفردية فلا نصل إلا إلى رفع نسب الانتحار شنقًا أو بالهجرة السرية، ذلك زقوم مدرسة الضلال المبين البورقيبية.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/23932/